﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: 80]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسخيرُ الحديدِ لـــداودَ بعد تسخيرِ الجبالِ والطّيرِ

لمّا ذكرَ البيانُ الإلهيُّ كرامةَ تسخيرِ الجبال لداودَ بالتّسبيحِ، أشارَ إلى كرامةٍ أخرى من كراماتِه، وهي تسخيرُ الحديد الّذي هو أقوى ترابِ الجبالِ، وأصلبُه وأصْفاه له[1]، وقد كان داودُ يصنعُ لبوسَ الحرب، بما أوتي من مهارةٍ في صناعة الحديدِ الّذي ألانَه اللّه له، فاستطاع به أن يقتاتَ من كدِّ يدِه، وأن لا يمدَّ يدَه لبيت المالِ العامّ، فكانت عفّتُه وهو الملكُ الممسكُ بمقاليد المملكةِ، مَضربَ المثلِ في كلّ العصورِ والدّهورِ، وهي ثمرةُ تعليمِه صنعةَ اللّباسِ، لتُستعملَ في التّحصين منَ البأسِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَنْعَةَ﴾: (صنع) أصلٌ واحدٌ، وهو عملُ الشّيء صُنْعًا، وامرأةٌ صَناعٌ ورجلٌ صَنَعٌ، إذا كانا حاذقَين فيما يصنعانِه[2]، والصِّناعَةُ: حرفةُ الصّانِع، وعملُه الصَنْعَةُ، وصَنْعَةُ الفرسِ أيضًا: حُسْنُ القيامِ عليه[3]، والصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنْعًا؛ لأنّ الصّناعةَ تستلزمُ حصولَ التّمرّنِ على العمل وكثرةَ الممارسةِ للصنعة، ولا يُنسبُ إلى الحيوانات والجمادات، كما يُنسبُ إليها الفعلُ[4]، فمعنَى لفظِ ﴿صَنْعَةَ﴾ في الآية: إتقانُ عملِ دروعِ الحلَق الدّقيقةِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 456.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (صنع).
(4) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 121.

2) ﴿لَبُوسٍ﴾: (لبس) أصلٌ يدلُّ على مخالطةٍ ومداخلة، من ذلك لَبِسْتُ الثّوب ألبَسُه لُبْسًا، وهو الأصلُ، ومنه تتفرّع الفروعُ[1]، وثوبٌ لَبيس: إذا أكثر لُبْسُه، ومُلاءَةٌ لَبيس بغَيْر هاء[2]، واللَّبوس عِنْد العَرَب السِّلاحُ كلُّها درعًا كانَ أو رمحًا أو سَيْفًا[3]، واللّبوسُ: ما يُلْبَسُ، وأنشدَ ابنُ السّكّيت:

البَسْ لكلِّ حالةٍ لَبوسَها *** إمّا نَعيمَها وإمّا بوسَها[4]

وقولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، يعني الدّروع[5]، وقيل: اللَّبوس، اسْمٌ عامٌّ للِّباس والسّلاح أيْضًا، من درع إلى رُمْحٍ وما أشبهَهما، مُذكّرٌ، فإذا نويتَ بها درع الحديد خاصّةً، أنّثتَ، وأنشد للعبّاس بنِ مرداس:

فَجِئْنا بألفٍ من سُلَيْمٍ عليهمُ *** لَبوسٌ لَهُم من نِسْجِ داودَ رائِعُ[6]

وفي قوله جلّ وعزّ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، قالوا: هي الدُّروعُ تُلبَس في الحَرْب[7].

3) ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾: (حصن) اصلٌ واحِدٌ مُنْقاسٌ، وهو الحِفْظُ والحياطَةُ والحِرْزُ، فالحِصْنُ مَعْروفٌ، والجَمْعُ حُصونٌ، والحاصِنُ والحَصانُ: المَرْأةُ المُتَعَفِّفَةُ الحاصِنَةُ فَرْجَها[8]، فيقال فيها مُحصَنةٌ أي مجعولةٌ كالحُصون، والحَصانُ في الجملة: المُحْصَنَةُ، إمّا بعفّتِها، أو تزوُّجِها، أو بمانعٍ من شرفِها وحرّيتها[9]، ودرعٌ حصينةٌ لتحصينِها البدنَ[10]، فيكونُ معنى ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾، أي: (تَقيَكم وتَحميَكم منَ الأذى في الحروب)[11].

4) ﴿بَأْسِكُمْ﴾: (بأس) اصلٌ واحدٌ، وهي الشِدَّةُ وما ضارعَها، فالبأسُ الشِّدَّةُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبس).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (لبس).
(3) السّجستانيّ، نزهة القلوب، ص: 403.
(4) البيت لبيهس الفزاريّ، ذُكر في الإيضاح والتّنبيه: 2/ 301، وتاج العروس: 15/ 473، وبلا نسبة في خزانة الأدب: 7/ 197، و7/ 198، 11/ 103، وفي أمثال العرب، ص: 111، وجمهرة الأمثال: 1/ 197، وفي شرح التّسهيل لابن مالك: 3/ 223.
(5) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: 3/ 974.
(6) ابن سيده، المخصّص: 5/ 144 (لبوس)، والبيت لعبّاس بن مرداس السّلميّ، ذكر في سيرة ابن هشام: 4/ 95 -، 4/ 96، وفي عيون الأثر في المغازي والآثار والسّير، لابن سيّد النّاس، ص: 226.
(7) الهروي، الغريبين: 5/ 1671.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصن).
(9) الرّاغب، المفردات: (حصن).
(10) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 1/ 422.
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 121.

الحرب، ورجل ذو بأس وبئيسٌ أي شُجاعٌ[1]، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْساءُ: الشِدَّةُ والمكروه، إلّا أنّ البؤس في الفقر والحرب أكثرُ، والبأسَ والبأساءَ في النّكاية[2]، وكلُّ ما جاء في القرآن على صيغة (بأس)، فهو منَ الشِدَّة، فمعنَى ﴿بَأْسِكُمْ﴾ في الآية: شدّةُ الحرب[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه عبادَه بأنّه اختصَّ داودَ عليه السلام، بأنْ علَّمه صناعةَ الدّروع يعملُها حِلَقًا متشابكةً، تسهِّلُ حركةَ الجسم؛ لتحميَ المحاربين مِن وقْع السّلاحِ فيهم، فهل أنتم شاكرون أيّها النّاسُ نعمةَ اللّه عليكم، حيث أجراها على يد عبدِه داود[4].

نعمةُ تعليمِ اللّه سبحانَه داودَ صناعةَ الدّروعِ ودعوةٌ قومِه لشكْرِ المُنعِمِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) العاطفةِ في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾:

استُهلَّ قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، بحرف الواوِ الدّالِّ على الجمْعِ والاقترانِ لوجود الجامعِ العقليِّ بين هذه الجُمل المُتعاطفة، فهذه كرامةٌ أخرى منَ الكرامات التّي خصَّ بها اللّه سبحانَه، عبدَه داودَ عليه السلام، وهي تعليمُه صنعةَ الدّروع وتلْيين الحديدِ بين يدَيْه كالعجين، ليجتمعَ له إلى العلْم، سهولةُ العملِ، فيأتي كما يريدُ[5].

صنعةُ الدّروعِ السّابغةِ كرامةٌ أخرَى منَ كراماتِ داودَ عليه السلام

سرُّ ورودِ الفعل ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ ماضيًا في الآية:

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، استعمالُ الفعلِ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ بصيغة الماضي الدّالّةِ على تحقُّقِ الفعلِ، فقد أتقنَ داودُ عليه السلام بتعليمِ اللّه له صنعةَ الدّروع، كثمرة من ثمار تعليم اللّه تعالى له وإلهامه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(2) الراغب، المفردات: (بأس).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 121.
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 456.

نُكتةُ إسنادِ فعلِ التّعليمِ إلى ضمير العظمةِ:

بيانُ جلالةِ الربّ الأكـــرمِ الّـــذي علّمَ الإنسانَ ما لم يعلمْ

أُسندَ فعلُ التّعليمِ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ إلى ضمير العظمةِ، للدّلالة على جلالة الوهّابِ سبحانه، فبعظمتِه علّمَ الإنسانَ، أصنافَ العلوم والفنونِ، والمهنِ والحِرفِ، بعد أن خرج جاهلًا من بطن أمّه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النّحل: 78]، ويفيدُ تفخيمُ الفاعلِ نفسه تعظيمَ الفعلِ أيضًا وبيانَ أهمّيةِ ذلك التّعليم في الحياة وتطوُّرِها.

دلالةُ لفظِ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ في الآية الكريمةِ:

لا علْمَ للإنسان إلّا ما علّمَه ربُّه المنّانُ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ بفعْلِ التّعليم، ويُقصدُ بالتّعليم هنا الإلهامُ والتّوفيقُ والمرانةُ على عملٍ ما، وهو بتوفيقِ الله تعالى، ويُنسبُ إليه، لأنّه لا شيءَ منَ العلم إلّا بإرادتِه وتوفيقِه[1]، فهو سبحانَه مصدرُ كلِّ علم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النّساء: 113]، وإنّما وردَ الفعلُ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ دون (فهّمناه) لأنَّ الفهمَ إنّما يكونُ مع المعاني الكلاميّةِ وما يجري مَجراها منَ المسائل والأمورِ النّظريّةِ بخلاف (العلم) فإنّه يُستعملُ مع الأمورِ النّظريّةِ والأمورِ العمليّةِ التّطبيقيّةِ، وذلك يتناسبُ مع صناعة الحديدِ وتحويلِها دروعًا سابغاتٍ، كما دلَّ التّضعيفُ في الفعل ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ على المبالغة في عمليةِ التّعليم حتى تحصلَ له الصّنعةُ المحتاجةُ إلى تمارينَ عمليّةٍ وتجاربَ مُتعدّدةٍ.

بلاغةُ لفظِ ﴿صَنۡعَةَ﴾ في الآية الكريمةِ:

استعملَ النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4901.

تـفـضـيـلُ الـلـه الإنسانَ بالتفنّنِ في الأعـمـال والـتّـأنّـقِ في الصّنائعِ

﴿لَّكُمْ﴾ لفظَ (الصّنعة)، ومعناها الصّناعةُ، والصّناعةُ حرفةُ الصّانعِ كالكتابةِ والحياكةِ، والمقصودُ التّفنّنُ فيها وإجادتُها، وهي من خواصِّ الإنسان، ومعجزةُ داودَ ﷺ، أنّه فعلَ ذلك من غير استعانةٍ بأداةٍ وآلةٍ، من نحو الكيرِ والنّارِ والسِّنْدان والمطرَقَةِ، فقد ألانَ اللّه تعالى الحديدَ لداود ﷺ، ليتمكّنَ من أداء الصّنعةِ على الوجه الأكملِ[1]، وإنّما عبّرَ بالصّنعة دونَ الصّناعةِ؛ لأنَّ الصّنعةَ اسمُ المصدرِ فقد علمَ أمرًا حقيقيًّا هي الصّنعةُ للّبوسِ ولم يعلمْ أمرًا معنويًّا هو صناعةُ اللّبوسِ.

سرُّ اختيارِ لفظِ ﴿لَبُوسٍ﴾ دون لباسٍ في الآية:

اخـتـصـاصُ اللّبوسِ بأنواعِ السّلاحِ وعمومُه لكلّ ما يلبسُ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، لفظَ ﴿لَبُوسٍ﴾ مُقترنًا بلفظِ ﴿صَنْعَةَ﴾ للدّلالةِ على دروعِ السّردِ الّتي تُلبسُ في الحروب، واللّبوسُ في الأصل اسمٌ لكلِّ ما يُلْبَسُ، فهو فعولٌ بمعنى مفعول، مثل: رَسول، ورَكوب، وحَلوب، وغلب إطلاقُه على ما يُلبَس من لَأْمَةِ الحرب منَ الحديد، وهي الدِّرعُ فلا يُطلقُ على الدِّرعِ لِباسٌ، ويطلقُ عليها لَبوسٌ[2]، وذهب بعضُ العلماء، إلى أنّ اللّبوسَ ليس مختصًّا بالدّروع، بل هو عامٌّ في أنواع السّلاح، فمنه الدِّرعُ والسَّيْفُ والرُّمْحُ وغيرُ ذلك[3]، وفي ذكرِ هذه الصّنعةِ المُتعلّقةِ بالتّعليم ما يدلُّ على شرفِ ذلك العلمِ ومناسبتِه لوظيفةِ داودَ في حماية شعبِه وأمّتِه من هجمات الأعداءِ.

دلالةُ حرفِ اللّام في ﴿لَّكُمْ﴾:

امـتـنـانُ الـلـه سبحانه بتعليمِ الإنـسـانِ ما يُـنـجـيـه مـنَ الهلاكِ

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، استعمالُ حرفِ الجرّ (اللّام) في ﴿لَّكُمْ﴾، ويجوزُ فيها أن تكونَ للتّعليل

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 143.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 456، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 121.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 93.

فتتعلّقَ بـ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾، أي لأجلِكم ومصلحتِكم، وحينئذٍ يكونُ الظّرفُ لغوًا؛ فاللّه علّمَ داودَ ﷺ، صنعةَ الدّروعِ، ثمّ تعلّمَ النّاسُ منه، فتوارث النّاسُ عنه ذلك، فعَمَّتِ النّعمةُ بها، كلَّ المحاربين منَ الخلقِ إلى آخرِ الدّهر، فلزمَهم شكرُ اللّه تعالى على هذه النّعمةِ[1]، ويجوزُ أن تكونَ ﴿لَّكُمْ﴾ صفةً لـ﴿لَبُوسٍ﴾، فتتعلّقَ اللّام بمحذوفٍ صفةً، وحينئذٍ يكونُ الظّرفُ مستقرًّا واللّام تفيدُ الاختصاصَ، أي: كائنٌ لكم[2].

دلالةُ الإشارةِ في الآية إلى ضرورة اتّخاذِ الأسبابِ:

أطيبُ كسبِ الإنسانِ ما عمِلته اليدانِ

يشيرُ قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، إلى أهمّيةِ اتّخاذِ الصّنائع وأسبابِ الرّزقِ والتّكسُّبِ، وهو قولُ أهلِ العقولِ والألبابِ، والسّببُ سنّةُ اللّه في خلقِه، وقد أخبر اللّه تعالى عن نبيِّه داود ﷺ أنّه كان يصنعُ الدّروعَ، وكان أيضًا يصنعُ الخوصَ، وكان يأكلُ من عملِ يدِه، وكان آدمُ حرّاثًا، ونوحٌ نجّارًا، ولقمانُ خيّاطًا، وطالوتُ دبّاغًا، وقيل سقّاءً، فالصّنعةُ يَكُفُّ بها الإنسانُ نفسَه عنِ النّاس، ويدفعُ بها عن نفسِه الضّررَ والبأسَ[3].

دلالةُ اللّامِ في جملة ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾:

علّةُ تعليمِ اللهِ داودَ صنعةَ الدّروعِ

تكرّرَ في قوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، استعمالُ حرفِ الجرّ (اللّام)، في جملة ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾، بعد اتّصالِها بالظّرف اللغويِّ ﴿لَّكُمْ﴾ الأولى وفقَ التّوجيه الأوّلِ المُتقدّم والدّالّةِ على التّعليلِ والغرضِ، فتكونُ الثّانيةُ في موضع بدلٍ أعيدَ معه لامُ الجرّ، والفعلُ منصوبٌ بإضمار (أن)، فتتقدّرُ بمصدرٍ، أي: لكم لإحصانِكم من بأسِكم ويتحقّقُ بالبَدليّةِ أنَّ الإحصانَ هو المقصودُ بالذّات من عمليّةِ التّعليم، كما يحتملُ أن تكونَ جملةُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 456.
(3) القرطبيّ، الجامع: 11/ 321.

﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ تعليلًا للتّعليم مُستأنفًا، فتتعلّقَ اللّامُ بـ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾، ويتحقّقَ على هذا التّوجيه علّتان للتّعليم الأولى أنَّ التَّعليم لأجلِكم وأنَّ التَّعليم لإحصانِكم، ويحتملُ أيضًا أن تكونَ تعليلًا للكون المحذوفِ المتعلّقِ بشبْهِ الجملةِ ﴿لَّكُمْ﴾ على التّوجيهِ الثّاني المُتقدّمِ، فامتنّ اللّه علينا بها، بقوله ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، أي لتكونَ وقايةً لكم في حربِكم لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ، وسببَ نجاةٍ من عدوّكم[1]، وفي جميع التّوجيهاتِ السّابقةِ تكونُ اللّامُ مُفيدةً للتّعليلِ وإظهارًا لحكمةِ التّعليمِ بما يؤولُ إلى مصلحةٍ للعبادِ ونفعٍ لهم في الحياة.

نُكتةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في قوله ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾:

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ على قراءاتٍ مُتنوّعةٍ في لفظِ ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾، فقرأ أبو جعفر وابنُ عامر وحفصٌ بالتّاء على التّأنيث ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾، ورواه شُعبة ورويس بالنون ﴿لِنُحْصِنَكُم﴾، وقرأ الباقون بالياء على التّذكيرِ ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾[2].

فمن قرأ بالتّاء ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ فإنّما أرادَ الدِّرع (ودِرعُ الحرب مؤنّثةٌ)، وقيل أرادَ (الصّنعة)، ومن قرأ بالنّون ﴿لِنُحْصِنَكُم﴾، فإنّما أراد اللّه جلّ وعزّ، يخبرُ عَن نَفسه بضمير العظمةِ[3]، ومن قرأ ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾ بالياء التّحتيّةِ: على أنّ الضّميرَ للّبوس أو لداود ﷺ، أو للتّعليم، وجوزَ أن يكونَ للّه تعالى على سبيل الالتفاتِ[4].

ومن بلاغة القراءات هنا أنها جمعت كل أنواع التحصين: التحصين الإلهي: المستفاد من قراءة النون: ﴿لِنُحْصِنَكُم﴾، وقد يستفاد من قراءة الياء أيضًا برجوع الضمير إلى الذات العليَّة، والتحصين البشَري: المستفاد من قراءة الياء ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾، والتحصين السببي المستفاد من قراءة التاء: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾، فقد جعل اللّه الدروع سببًا في حمايتهم.

بلاغةُ الالتفاتِ في بعض القراءاتِ:

يظهرُ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 456.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 324.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 469.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 74.

جـذبُ الأفـهـامِ بتنويع الضّمائرِ في الكلامِ

قراءةِ ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾، أسلوبُ الالتفات من ضمير المُتكلّم، في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ إلى ضمير الغائبِ، في قوله: ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾، أي الله ﷻ[1]، والالتفاتُ من افتنان العربِ في الكلام، وحسنِ تصرّفِهم فيه، لأنّ الكلامَ إذا نُقلَ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، كان ذلك أحسنَ تطريّةٍ لنشاطِ السّامع، وإيقاظًا للإصغاءِ إليه، من إجرائِه على أسلوبٍ واحدٍ[2].

بلاغةُ المجازِ في الآية الكريمةِ:

لـن يُـصـيـبَ الإنسانَ إلّا ما كتبَ له الرّحمنُ

أُسنِدَ في قوله تعالى: ﴿لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، فعلُ الإحصان إلى الدِّرع، وهو الفاعلُ على الحقيقة، فيكونُ من إسناد الفعلِ إلى فاعلِه، على سبيل الحقيقةِ العقليّةِ، لأنّ الدّروعَ من أسباب حمايةِ الإنسان، والسّلامةُ بيدِ الرّحمن سبحانه، ولا ينبغي أن يعتقدَ أنَّ في هذا التّركيب مَجازًا عقليًّا من إسناد الفعلِ إلى غير فاعلِه الحقيقيِّ لعلاقةِ السّببيّةِ، وإلّا كان تركيبُ (قام زيدٌ) منَ المجازِ العقليِّ لأنَّ اللّه تعالى هو فاعلُ (القيام) كما نبّه لذلك الشّيخُ عبدُ القاهر الجُرجانيُّ[3].

دلالةُ توالي ضمائرِ الخطابِ في الآية الكريمةِ:

وجـوبُ شـكـرِ الـنّـعـمـةِ على عمومِ الأمّةِ

تكرّرَ ضميرُ المخاطَبِ، في قوله تعالى: ﴿لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، فقيل إنّ الخطابَ لداود وأهلِ بيتِه خاصّةً، والظّاهرُ أنّ الخطابَ فيه لهذه الأمّة من أهل مكّةَ، ومن بعدَهم إلى يوم القيامةِ، فامتنّ اللّه تعالى على النّاسِ جميعًا، بأنّه علّمَ داودَ عليه السلام عملَ الدّروع، ثم تعلّمَ النّاسُ منه، فعمّتِ النّعمةُ بها كلَّ محاربٍ منَ الخلقِ إلى آخر الدّهر فلزمَهم شكرُ اللّه تعالى على هذه النّعمةِ[4]، وأفاد تَكرارُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 456.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14.
(3) التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 165.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 169.

الضّميرِ تشخيصَ المخاطَبين وتعيينَهم ولفْتَ انتباهِهم إلى أثرِ هذه النّعمةِ وقيمتِها.

معنَى حرفِ الجرّ ﴿مِّنۢ﴾ في الآية:

وقايةُ الدّروعِ من بعضِ البأسِ لا من كلِّه

ورد في قوله تعالى: ﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾، حرفُ الجرّ ﴿مِّنۢ﴾، ومعناه في هذا السّياقِ التّبعيضُ، بمعنَى أنّ هذه الدّروعَ الّتي صنعَها داودُ، تُحصّنكم من بعض البأسِ الّذي يحصلُ من بعضِكم لبعضٍ، في شدائد الحربِ، لا منَ البأس كلِّه[1]، والذي يظهرُ أنَّ معنَى ﴿مِّنۢ﴾ الابتداءُ للدّلالةِ على أنَّ تلْيين الحديدِ وصناعةَ الدّروع منها له غاياتٌ عديدةٌ تبدأُ من حمايتِكم من بأسِكم وحروبِكم ولها ثمراتٌ وفوائدُ أخرى مُتعدّدةٌ.

دلالةُ (البأس) في قوله: ﴿مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾:

الامتنانُ بالإحصانِ من أسلحةِ الحربِ والطِّعانِ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ بلفظ ﴿بَأۡسِكُمۡۖ﴾، فقيل إنّ المقصودَ منه هو: حربُ عدوّكم، والمرادُ ممّا يقعُ فيها، وقيل بأنّ الكلامَ يشتملُ على تقدير مضافٍ، أي من آلةِ بأسِكم كالسّيف والرّمح ونحوِهما، من أسلحة الحربِ[2]، فيكونُ مجازًا بالحذف، والذي نميلُ إليه أنَّ البأسَ مصدرٌ غلبَ استعمالُه في القتال والحرب تهويلًا لشأنِها وتفخيمًا لِما يجري فيها من ضرابٍ وقتلٍ وشدّةٍ، والدّروعُ إنّما تَحمي من آلات العدوِّ المستعملةِ في الحرب، لكنّه عدلَ عن ذكرِها لبيان أثرِ هذه الدّروعِ في الحماية من بأسِها وضررِها فيكونُ تأشيرًا عميقًا لوظيفة الدّروعِ في الوقاية منَ البأسِ والضّررِ، وأضافَ (البأس) إلى المُخاطَبين مع أنّها تَقيهم من بأسِ غيرِهم للدّلالة على أنَّ المرادَ من بأسٍ وضررِ بعضِكم لبعضٍ، فتكونُ الإضافةُ في ﴿بَأۡسِكُمۡۖ﴾ من إضافةِ المصدرِ لفاعلِه؛ لأنّ الحربَ تكونُ مشتركةً بين الطّرفَين.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 457.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 74.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾:

ترتيبُ الشّكرِ على إسداءِ نعمةِ الحفظِ والسّترِ

عُطِف قولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾، على ما قبْلَه بحرف الفاء، الدّالِّ على ترتُّبِ ما بعدَها على ما قبْلَها، أي بسببِ تلك النِّعمِ الّتي أسداها لكم، من هذا التّدبيرِ المُحكمِ، بأن هيّأ لكمُ الدّواءَ عند الدّاء، والدّفعَ عند احتمالِ الاعتداء[1]، فوجبَ تعقيبُ نعمةِ السَّتر بالشُّكر.

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾:

بيانُ أمرِ النّاسِ بالشّكرِ وتقريعِهم على الكفر

ورد في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾، أسلوبُ استفهامٍ، ويظهرُ منَ السّياق أنّه استفهامٌ خارجٌ عن حقيقتِه، إلى غرضِ الأمرِ، أي اشكروا اللّه على ما أنعمَ به عليكم، وهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: 91] أي انتهوا عمّا حرّم اللّه، والنُّكتةُ فيه أنّه أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهامِ، لِما فيه منَ التّقريع، بالإيماءِ إلى التّقصيرِ في الشّكرِ والمبالغةِ، بدلالتِه على أنّ الشّكرَ مستحقُّ الوقوعِ، بدون أمرٍ فسأل عنه هل وقع ذلك الأمرُ اللّازمُ الوقوع أم لا؟ وقيل هو استبطاءٌ لعدمِ الشّكرِ، بعد كلّ هذه النّعمِ[2].

سرُّ العُدولِ إلى الجملةِ الاسميّة في الآية:

كثرةُ النِّعمِ تستوجبُ ثبوتَ الشّكرِ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ العُدولَ عن إيلاء (هل) الاستفهاميّةِ، بجملةٍ فعليّةٍ إلى الجملةِ الاسميّة، مع أنّ حرفَ (هل) له مزيدُ اختصاصٍ بالفعل، فلم يقل: فهل تشكرون؟، وعدلَ النّظمُ الكريمُ إلى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ ليَدُلَّ على ما تقتضيه الاسميّةُ من معنَى الثّباتِ والدّوام، أي فهل تقرّرَ شُكرُكم وثبتَ ودامَ، لأنّ تقرُّرَ الشُّكر ودوامَه، هو الشّأنُ الواجبُ في مقابلة هذه النِّعمِ الكثيرةِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4898.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 80، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 122.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإحصان والوقاية:

عمومُ الإحصانِ في الـوقـايـةِ وغيرِها وكلاهما لفظٌ قرآنيٌّ مبينٌ

يتّفقُ لفظا الإحصانِ والوقايةِ، في الدّلالةِ على الحفظ والحمايةِ، ويختلفان في أصل الاشتقاقِ، فالإحصانُ مأخوذٌ من (حَصُن)، وهو أصلٌ يدلُّ على الحفظ والحياطةِ والحِرز، ومنه الحِصْنُ للتّحصّن فيه[1]، وأمّا الوقايةُ فمأخوذةٌ من (وقى)، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على دفعِ شيء عن شيء بغيره، والوقايةُ: ما يَقي الشّيءَ، ومنه التّقوَى[2]، كما يفترقُ الإحصانُ عنِ الوقاية بكونِه مشتركًا بين أربعةِ معانٍ: الإسلام، والحرّيةِ، والعفافِ، والتزوّجِ[3]، في حين لا تدلُّ الوقايةُ إلّا على معنًى واحدٍ وهو دفعُ الشّيء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقي).
(3) ابن جزي، التّسهيل: 1/ 32.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»